

ابن خلدون : مساهمة في تطور الفكر العلمي في عصره

Ibn Khaldun a Contribution to the Development of Scientific Thought in his Period

زدك محمد أمين سنة ثانية دكتوراه فلسفة
جامعة معسكر - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - قسم الفلسفة
aminezdake@yahoo.fr

ملخص

جاء ابن خلدون في الفترة، التي اكتملت فيها جميع العلوم والمعارف في الحضارة الإسلامية، بحيث أصبح من الممكن القيام بتقويم موضوعي، لذلك لم يكن من الصعب على عقل مثل ذلك الذي امتلكه ابن خلدون، معرفة أماكن الخلل والسعي لتصحيحها، وقد قدم لنا تعريفا جديدا للعلم مفاده أن التصورات الأقرب إلى الواقع هي المكونة للمعرفة العلمية، كما انه تعامل مع الأشياء المعرضة للتغيير على أنها يمكن أن تصبح موضوع للمعرفة العلمية، خلافا لما كانت تميل إليه النظرة المثالية التي كانت سائدة من قبله، وانتقل أيضا إلى المنهج الاستقرائي وليس تتبع التصورات العقلية المجردة التي اعتمدها الفلاسفة المسلمون أخذًا من منطق أرسطو الصوري.

الكلمات الدالة: المعرفة، العلم، المنهج، التصورات.

Abstract

Ibn Khaldun came in a period, Was completed in which all sciences and knowledge so that it became the evaluation is objectively possible, So it was not difficult for the mind, such as that possessed ibn khaldoun, to see the places of flaw and seek to correct them, he had Introduced us a new definition of science and perceptions closer to reality, he was dealing with things changing apt to become the subject of scientific knowledge, Unlike tend idealism that existed before, he also moved to the inductive approach rather than the abstract mental the perceptions adopted by Muslim philosophers from Aristotle's formal logic.

Keywords: knowledge, Science, Method, perceptions.

مقدمة

نصيبها من البحث لذا أردت أن تكون هذه المساهمة سدا لتلك الثغرة، كون ابن خلدون لم يطور أو يبتكر العلوم الاجتماعية فحسب، بل إن عمله تجاوز ذلك إلى التطوير في مفهوم العلم بمعناه الواسع، وإن كانت تلك المساهمة لم تكن مقصودة بشكل مباشر وإنما جاءت إضافة عرضية مقارنة بالهدف الذي وضعه ابن خلدون لنفسه وهو ضم علم التاريخ إلى علوم الحكمة، واستنباط علم العمران البشري ليكون أداة منهجية تحقق للتاريخ مكانة الحقيقية وتبعده عن حيز الوضعية الإشكالية؛ وعمل كهذا لا يمكن أن يصدر إلا من فيلسوف علم، لكن على الرغم من إقرار الباحثين بأن ابن خلدون كان ساعيا إلى

بعد الإطلاع على الدراسات التي تمت حول فكر ابن خلدون اتضح لي أن هناك جانبا مازال لم ينل حقه من البحث والدراسة وإن كان هناك شيء متعلق به قد تم الكلام فيه فإنه لم يفه حقه من البحث فقد لاحظت الكثير من البحوث التي تمت حول انجازات ابن خلدون في ميادين المعرفة والعلم، كانت فيما تعلق بعلم التاريخ وعلم العمران وفلسفة التاريخ، بالإضافة إلى تحليل كلام ابن خلدون ومواقفه من العلوم والفلسفة في عصره. ولكن فيما تعلق بتطوير الفكر العلمي كلية وتقديم إضافة لما كان موجود سابقا لم أجد هذه النقطة قد استوتف

حضارة قد أشرفت على السقوط.

العلم في عصر ابن خلدون:

أن ابن خلدون لم يكن مهتما بصياغة وبلورة نظرية في المعرفة أو العلم بشكل واضح ولكن ما ذكره ابن خلدون في المقدمة مما يتصل بالموضوع دفعه إلى ذلك دراسة للتاريخ والعمران البشريين. أي أن إسهامات ابن خلدون الإستراتيجية كانت في سياق معين ولم تكن غاية في ذاتها؛ ومع ذلك فهي على قدر من الإبداع والجدة مما تستحق الدراسة. ويمكن اعتبار

أكبر العوامل مساهمة في صياغة نظرية خلدونية في العلم هي نقد ابن خلدون لمكانة العقل في الفلسفة اليونانية وعند من تابعهم من المفكرين العرب والمسلمين، للمنطق والفلسفة الإلهية، بل هذا بالإضافة إلى نزوع صاحب المقدمة إلى معرفة الظاهرة الإنسانية معرفة علمية.

مكانة العقل عند ابن خلدون:

إن العقل حسب مفكرنا " مفضور على إدراك العالم الطبيعي، مهياً للاستدلال على ما فوقه بآثاره. وهذا العقل تتجلى فاعليته في مستويات ثلاثة، متدرجة في كمالها، هي: العقل التمييزي- العقل التجريبي - العقل النظري".⁽⁵⁾ ذلك أن ابن خلدون يعتبر أن الفلاسفة من قبله كانوا مخطئين لما أرادوا أن يصلوا إلى معرفة ما وراء الطبيعة بالعقل وحده خصوصاً لما كان من المؤكد عجز الحواس عن مسانده في ذلك، فعالم الغيبات أوسع من نطاق العقل " وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه فهو ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها... لكن للعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه"⁽⁶⁾ والعقل عند ابن خلدون جزءاً من النفس البشرية وهي بدورها أساس الإدراك والمعرفة؛ فهو يرى أن الإنسان "مركب من جزئين أحدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به ولكل واحد من الجزئين مدارك مختصة به، والمدرك فيها واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية، وتارة مدارك جسمانية، إلا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك الجسمانية يدركها بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس"⁽⁷⁾ ويقسم ابن خلدون النفوس العارفة وفق مبدئه في الاستحالة والترقي من أسفل إلى أعلى؛ من عالم الحس إلى عالم الملائكة إلى"⁽⁸⁾ ثلاث أصناف: صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني، فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى؛ نحو المدارك الحسية والخيالية، وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصويرية والتصديقية التي للفكر في البدن، ... وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم".⁽⁹⁾ وأما الصنف الآخر فهم الذين يمكنهم التوجه بحركاتهم الفكرية دون الافتقار للآلات البدنية (الحواس)، نحو العالم الروحاني وهم الأولياء أهل العلوم الدينية وهم لا يدخلون ضمن نطاق بحثنا، هم وصنف آخر يستطيع الانسلاخ من

دراسة الموضوعية للظواهر، وذلك غير ما هو دارج في التصورات العلمية لحقائق الأشياء آنذاك بين المفكرين والفلاسفة في القرون الوسطى، على الرغم من ذلك كله، بقي الحديث عن إضافات خلدونية في فلسفة العلم وتصوره وشروط وجوده وكيفية نشوءه موضوع دون البحث؛ وهنا ما جعلنا نطرح السؤال التالي: هل كان هناك تصور ومفهوم جديدين للعلم في فكر ابن خلدون سواء بوعي منه أو بدون وعي، أم أنه أضاف علم العمران كموضوع جديد للمعرفة فقط، لكن وفق مناهج مقرر سلفاً ودون الخروج عما هو سائد؟

ولكن قبل الشروع في الموضوع مباشرة علينا إلقاء نظرة على حال المعرفة العلمية في عصر ابن خلدون، مستعينين في ذلك بنصوص من المقدمة ليتبين لنا تشخيص صاحب المقدمة، وعلى أي أساس تم تجاوزه، فقد امتاز "بسعة اطلاعه على ما كتب الأقدمون وعلى أحوال البشر، وكان قادراً على استعراض الآراء ونقدها، دقيق الملاحظة أثناء ذلك كله، مع حرية في التفكير وإنصاف لأصحاب الآراء المخالفة لرأيه... ثم إن ابن خلدون مفكر متزن لا يميل مع الهوى، بل تراه يقيد استنتاجاته كلها بما هو مشاهد في الاجتماع الإنساني، أو بما عرفه أو بلغه من الأحوال أو بما تضافرت عليه الأدلة"⁽¹⁾

المعرفة في عصر ابن خلدون:

كانت العلوم في الحضارة العربية الإسلامية، ماعدا العلوم الشرعية هي نفسها العلوم العقلية التي وضعها اليونان وأخذها عنهم المسلمون؛ مع الاعتراف بحدوث تغييرات أملت ظروف تاريخية، ومفكرنا " اشتغل بالمعرفة العربية الإسلامية وهي في حالة امتلاء وانسداد واقعيين، وهذه الحالة أصبحت في عهده قابلة للملاحظة، وتمس الميادين المعرفية برمتها النقلية والعقلية."⁽²⁾ وليس أدل على ذلك من تصريحات صدرت عن ابن خلدون نفسه فهو القائل: " ولقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب، لتناقص العمران فيه، وانقطاع سند العلم والتعليم، كما قدمناه في الفصل قبله، وما ادري ما فعل الله بالمشرق"⁽³⁾ وهذا يعني أن العرب والمسلمين كانوا آنذاك كان قد تجاوزوا فترة استيعاب علوم السابقين وامتلاكها "وعمدوا

في نفس الوقت إلى تصحيحها ثم إضافة معارف جديدة لم يسبقهم إليها احد."⁽⁴⁾ وابن خلدون قد جاء في فترة متأخرة عن ذلك من الحضارة الإسلامية، كانت قد فقدت فيها مضامين المعرفة اليونانية بريقها، فاستطاع إن يراها على حقيقتها دون أن تلقى في قلبه تعظيماً يصرفه عن مكامن الخلل، فأمكنه ذلك من التعرض للعلم السابق عليه بالنقد والتمحيص، وتقديم البديل. أي أن ابن خلدون كان بشكل من الأشكال فيلسوف علم قام بثورة أحدثت قطيعة إبستمولوجية مع ما كان موجود، تمثلت في انتقال العلم من البحث عن ماهيات الأشياء إلى البحث عن الخصائص الموضوعية لها، عن طريق الاستقراء، والتحرر من النزعة المثالية في المعرفة التي ترى أن الحقيقة تكمن فقط في الثابت، وأن المتغير يستحيل أن تقوم حوله معرفة علمية؛ لكن لم يكتب لها الاستمرار لظهورها في

بشريته في فترات معينة، ليصبح في طور الملائكة وهم الأنبياء. وهم غير معنيين بالعلوم العقلية أو الفلسفية. وإلى هذا الحد يتبين لنا أن المعرفة العلمية يقوم بها العقل والحواس وتحديد العقل النظري هو المنوطة به تحصيل العلوم إذ يقول عنه ابن خلدون أنه "يُحَصَّلُ به في تصور الموجودات غائبا وشاهدا على ما هي عليه"⁽¹⁰⁾ أي معرفة الوجود بما هو موجود وتصوره كما هو لا كما ينبغي أن يكون أو من خلال أقييسة وتجريدات ذهنية قد لا يكون هناك ما يربط واقعها بتصورها.

موضوع العلم عند ابن خلدون:

صحيح أن عالم الحس هو ما يمكن الإنسان معرفته بحكم ملائمة ما يمتلكه الإنسان من وسائل لطبيعة هذا العالم وخصائصه، ابن خلدون ينطلق من مبدأ عقلي مفاده أن الطبيعة متسقة مطردة القوانين وتحت طبيعة ظاهرة، فكل حادث من الحوادث ذات كان أم فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله"⁽¹¹⁾ وتقع في مدارك النفس "على نظام وترتيب، لأن الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها"⁽¹²⁾ وهو قسمين ذوات وأفعال: وهو يقبل لأن تحيط به العلوم معرفة. ووظيفة البحث العلمي حسب مفكرنا هي تتبع الأعراض الذاتية وهو هذه الأخيرة عبارة عن مفهوم اقتبس ابن خلدون من عند الإمام الغزالي الذي فصل فيه في كتابه مقاصد الفلاسفة، حيث يقول عن الأعراض الذاتية " ونعني بها: الخواص التي تقع في موضوع ذلك العلم، ولا تقع خارجة عنه، كالمثلث والمربع لبعض المقادير، والانحناء والاستقامة لبعضها، وهي أعراض ذاتية لموضوع الهندسة، وكالزوجية والفرديّة للعدد، وكالاتفاق والاختلاف للغمات، أعني التناسب، كالمرض والصحة للحيوان، ولا بد في أول كل علم من فهم الأعراض الذاتية بحدودها على سبيل التصور. أما وجودها في الموضوعات وإنما يستفاد من تمام ذلك العلم، إن مراد العلم أن يبرهن عليه فيه"⁽¹³⁾ و"العلم بهذا المعنى يبحث في خواص الأشياء التي تشكل موضوعه"⁽¹⁴⁾ وهي تصورات ناجمة عن الملاحظة المباشرة أي قريبة من الواقع غير مبالغ في التجريد كما هو الحال في النهج الذي اتبعه السابقون عليه.

ابن خلدون والمنهج القديم:

وبعد أن ضبط ابن خلدون حدود المجال الذي يمكن للعقل أن يبحث فيه عن معرفة علمية، نجده يشير إلى الطريقة التي على العقل أن يتبعها في سبيل امتلاك معرفة صحيحة منطقيا وواقعيا، أي أنه تكلم في منهج معين عبره فقط يستطيع الإنسان أن يتكشف العلوم بالحقائق. يصرح ابن خلدون أن المنهج العلمي هو استقرائي يتتبع خصائص الموضوع الذاتية من خلال الملاحظة المباشرة، والخطاب العلمي عنده يكتفي بالتعبير عن " المعاني العينية التي ما تزال الصورة الحسية عالقة بها"⁽¹⁵⁾ من خلال نقده للمنطق ومن خلال عبارات نجدها متفرقة في أنحاء شتى من المقدمة تشير بشكل واضح إلى أهم ملامح منهجه الجديد.

وعلى التذكير أن المنهج الذي كان سائدا قبله هو المنطق

المنهج العلمي عند ابن خلدون:

يبقى الى حد الآن سؤال المنهج مطروحا في فكر ابن خلدون العلمي. ولكي يتجلى بشكل أوضح نذكر بأنه على الرغم من الانتقادات التي وجهها ابن خلدون لمنهج المناطقة إلى أنه لم يتركه بالكلية فصي استخدامه لمنهجه الجديد لم يلغى الخطوات أربعة تعارف عليها المناطقة واشترطوها لكل علم، وهي: الموضوع والأعراض الذاتية والمسائل والمقدمات، وإنما ترك الخطوة الأخيرة والمتعلقة بالبرهان لأن ذلك ليس من نوع

- 4- جلال مظهر: الحضارة الإسلامية أساس التطور العلمي الحديث، مركز كتب الشرق الأوسط، مصر، 1969م، ص 68.
- 5- فائز البرازي، ابن خلدون والاجتماع العربي، مركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية، سوريا، 2007-07-08م، <http://www.mokarabat.com/s2511.htm>
- 6- المقدمة، ص 468-469.
- 7- المقدمة، ص 566.
- 8- الجيلالي ابن التهامي مفتاح، فلسفة الإنسان عند ابن خلدون، دار الكتب العلمية، لبنان، 2011م، الطبعة الأولى، ص 135.
- 9- المقدمة، ص 112. بتصرف.
- 10- المقدمة، ص 481.
- 11- المقدمة، ص 50.
- 12- المقدمة، ص 467.
- 13- الغزالي أبو حامد، مقاصد الفلاسفة، تحقيق وتقديم: محمود بيجو، مطبعة الصباح، سوريا، 1420هـ - 2000م الطبعة الأولى، ص 57.
- 14- محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 1994م، الطبعة السادسة، ص 104.
- 15- محمود يعقوبي، أصول الخطاب الفلسفي، (ط2): الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2009م)، ص 75.
- 16- محمود يعقوبي، معجم الفلسفة، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1399هـ - 1979م، ص 213.
- 17- المقدمة، ص 563 بتصرف.
- 18- المقدمة، ص 565.
- 19- علي عبد الواحد ولي، عبقرية ابن خلدون، عكاظ، المملكة العربية السعودية، 1404هـ - 1984م، الطبعة الثانية، ص 181.
- 20- المقدمة، ص 518.
- 21- المقدمة، ص 53.
- 22- المقدمة، ص 437.
- 23- المقدمة، ص 478.

العلوم التي يريد ابن خلدون الخوض فيها فهو عندما يتحدث عن علم العمران يقول: "وكان هذا علم مستقل بنفسه. فهو ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وهو ذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض لذاته واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم وضعيا كان أو عقليا."⁽²¹⁾ وابن خلدون يذهب بدل اعتماد الخطوة الرابعة من خطوات المناطقة التي هي البرهان يذهب إلى اعتبار الاستقراء كمنهج وظيفية الفكر فيه أن "يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحد بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقائق ملكة له، فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا"⁽²²⁾ وبيان العوارض لا يمكن أن يكون إلا بتتبعها كما قال هو واحدا واحدا، وهذا هو شأن الاستقراء لأن العلم حسب فيلسوفنا يرتكز على تصورات " لا تبعد عن الحس كل البعد ولا يتعمق فيها الناظر؛ بل كلها تدرك بالتجربة وبها يستفاد، لأنها معاني جزئية تتعلق بالمحسوسات وصدقها وكذبها، يظهر قريبا في الواقع، فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك."⁽²³⁾

الخاتمة

في الأخير نستنتج أن الحس النقدي الخلدوني قد امتد ليشمل حتى المستوى الاستمولوجي من المعرفة في الحضارة العربية الإسلامية وقد عدل ما ارتآه انحراف عن مقاصد المعرفة العلمية التي تجعل من الحقيقة هدفا لها خاصة وأنه كان يمتلك فكرا منفتح ومبدع سمح له بان يفكر خارج الأطر التي وضعها الآخرون، فوضع لنا تصور للعلم أكثر واقعية وموضوعية وطور في مبادئ ومنطلقات العلم، بحيث تتلائم مع ما كان يصبو اليه من إضافة المعرفة بالإنسان إلى حقل العلوم الحكمية والفلسفية التي تعتبر إنسانية لا تختص بأمة أو ملّة معينة، ومن هنا تفجرت إبداعاته في مجالات معرفية وعلمية شتى وجعلته من أرائه تعرف أطول فترة من الراهنية والاستمرار عبر التاريخ.

الهوامش

- 1- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، لبنان، 1983م، الطبعة الرابعة، ص 694.
- 2- سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، لبنان، 1998م، الطبعة الأولى، ص 17.
- 3- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، لبنان، 2007م، طبعة جديدة ومنقحة ومصححة، ص 444.